الأدب في أسبوع

أسواق النخاسة

ما زلت أضحك إبْلي كلما نظرت ... إلى من اختضبت أخفافها بدم ا
أسيرُها بين أصنام أشاهِدُها ... ولا أشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصنم

هكذا يقول المتنبي في صفة أصحاب السلطان الأدبي والسياسي من أهل عصره ، ولا يزال هذا ينطبق إلى اليوم على البلاد الشرقية والعربية إلا قليلاً قليلا. لقد أذكرتني أشياء رَمَتْ إلى – ما كنت أسوس النفس على تناسيه ونبذه والتباعد عنه ، ولكن صناعة الأدب هي من بين الصناعات أشدُّها التحاماً بالحياة ... لا ، بل بالأصول النفسية التي تقوم عليها وبها أسواق المجتمع الإنساني ، وهي ترى بالأديب في تقور متسعّر من نزاع الغرائز والشهوات والأحقاد ، وهو بين اثنتين : إما أن ينحط في هوى غرائزه التي تثيرها هذه النار الآكلة ، فيفسد بفسادها ، وإما أن يتحصن دونها ، فيروض غرائزه الوحشية ، حتى تألفَ وتنقاد لحكم العقل النبيل والعواطف السامية . فكذلك يوطن نفسه على الحرمان والألم والتفرد والوحشة ... ثم على الصراع الذي لا رحمةَ فيه ولا هوادة بين تضرُّم النزغات المستبيحة ، وبين زهادةِ النفس المتورعة المطمئنة . وكان أحق الناس بالتسامي ومطاولة الغرائز في هذه الحرب الموقدة – الأدباء ، فالأدب في أصله تنزيهٌ للنفس وكبحٌ من جماحها ، ورفق في سياستها ؛ فإذا انقلب الأدب تضرية للوحوش الرابضة في الدم من الطبائع والغرائز ، خرَج عن أصله وفقدت ألفاظه معانيها ، وصارت أسواق الأدب تعتمد في معاملتها على البغي والظلم والعدوان والتهجم والاستبداد . وفقدت كل معاني الحرية والعدل والإنصاف والتمييز بين الخبيث والطيب ، وهي أصول الفطرة الأدبية السامية .

إن الأديب الحر ينتفض تقززاً واشمئزازاً كلما انبعثت روح حقارة المجتمع من وراء الزِّمم الأخلاقية المموَّهة بالنفاق ، والتي أقيمت عليها أصنام منصوبة للعظمة الباطلة الجوفاء ، وهو أشد انتفاضاً وانتفاضاً حين يرى ببصره إلى الأدب والعلم وهذه المعاني السامية فيرى الأدباء والعلماء أذلاء مستعبدين قد خضعت أعناقهم للحاجة والضرورة والبؤس، فهم نواكس الأبصار إلى الأرض بين يدي فئة منهم قد أخذوا عليهم أفواه الطرق المؤدية إلى بعض الرزق ، حين وآتاهم القدر ببعض السلطان والجاه والسيطرة ؛ وأقامتهم الشهرة الذائعة أنصاباً تهوى إليها الأغراض ، وتناط بها الوسائل ، وتعتمد عليها الحكومات في تقدير العلم والأدب وأهلهما والعاملين عليهما ، وكذلك لا يستطيع أديب أو عالم أو فيلسوف أن يجتاز إلا بإجازة من أيديهم وبأختامهم ، وإلا أن يشهدوا له شهادة التقدير ، وأن يصبُروا له السِّعر في «تسعيرة» السوق الأدبي الذي أقامتهم الحظوظ عليه حكّاماً ومقوِّمين

إن الشهرة والشهادة هما شيئان لا قيمة لهما في العلم والأدب فبناء العلم على نجاح التجربة واستواء المنطق وإقرار العقل ، وبناء الأدب على صدق الإحساس وحدة الإدراك وسمو العاطفة وقوة الحشد وبراعة العبارة والأداء . فإذا لم تكن الشهرة من هذا تستفيض ومنه تَشرع ، فأغناؤها على صاحبها إلا بعض الأباطيل التي تنفش في عقول الأمم الضعيفة والأجيال المستعبدة بالأوهام والتهاويل . والشهادة ما هي إلا إجازة الدولة لأحد من الناس أنه قد تحرَّر من طلب العلم والأدب على القيود التي تتقيد بها المدارس والجامعات في أنواع بعينها من الكلام ، وأنه قد حصل في ورقة الامتحان ما فُرض عليه تحصيله بالمذاكرة ، ثم ترفع الشهادة يدها عن معرفة ما وراء هذا التحصيل وما بعده وما يصير إليه من الإهمال أو النسيان أو الضعف أو الفساد . فحين يغادر أحدهم الجامعة حاملاً شهادته مندمجاً في زحمة الجماعة تفقد الشهادة سلطانها الحكومي — أو هكذا يجب أن يكون — ولا يبقى سلطان إلا للرجل وأين يقع هو من العلم أو الأدب أو الفن ؟ وهل أصاب أو أخطأ ؟ وهل أجاد أو أساء ؟ وهكذا فهو لا ينظر إليه إلا منسولاً غفلاً من «مكياج» الدبلوم والليسنس والماجستير والدكتوراه ... وما إليها ، وإذن ، فأولى ألا ينظر إليه عن شهادة قوم لم يكن سبيلهم إلى التحكم في أسواق العلم والأدب إلا الشهادات المستحدثة ، والشهرة النابغة على حين فترة وضعف واختلاط وجهل كان في الأمة حين كان أقل العلم وأسفُّ الأدب يرفعان صاحبهما درجات من التقدير والإجلال والكرامة

إن هذه التجارة التي تقوم على استعباد العلم والعلماء والأدب

والأدباء تجارة باغية ينبغي أن تفنى نخاستها وأن تناق أسواقها ، وينبغي أن يتحرر الأدباء والعلماء المستعبدون قليلاً من أغلال الضرورات المستحكمة ليحاربوا بني هذه التجارة بالنبل والسمو والترفع ، وليهتكوا تلك الأستار الحريرية الرفيعة المسدلة على بيوت الأوثان الجاهلية التي تستعبد الأحرار باستغلال ضراعة الضرورة والحاجة والفقر ؛ ينبغي . . .

وينبغي لكاتب هذا الباب الجديد في « الرسالة » أن يرفع القلم عند هذا القدر الآن ، ويعود إليه بالتفصيل والبيان فيما يستقبل

معهد الصحراء بيت الحكمة

كتب صديقي « اسماعيل مظهر » — في مقتطف يناير سنة ١٩٤٠ — كلمة بليغة يصف فيها « رهين المحبسين » ، محبس الصحراء ، ومَحبس النسيان ، وهو معهد الصحراء القائم على مشارف الصحراء المترامية ، في « مصر الجديدة » ، وقد شيده « الأسد المصريّ » الملك فؤاد رحمة الله عليه من ماله خاصة ، ليكون مأوى للعلماء الذين يدرسون طبائع الصحراء ومعادنها وأجواءها ، ولكنه لم يتم بناؤه لما عرض من مرض الملك العالم ثم وفاته على شدة الحاجة إلى جرأته وإخلاصه وعزمه ، وإنفاذ هذا العزم بالبصيرة والحكمة والمثابرة

وكنت كلما صحبت أخي « اسماعيل » لبعض الرياضة ، تهاوينا إلى البيداء المقفرة الصامتة بأحزانها الحائرة ، وربما نتقاودُ في جوفها فترمى بنا أرجلنا إلى بناء شامخ قد أقعي على ربوة من الأرض كأنما يتجمّع للوثبة ، ومع ذلك فما كاد أجد في سمعي بيان هذا الأعجم الصموت، وهو يُهمهمُ بأنّاته من ذُلّ الوحشة والأسر والنسيان والخراب ، فأنشد « إسماعيل » قول الرضيّ :

ولقد رأيتُ « بديرِ هندٍ » منزلاً
ألمّاً من الضرّاء والحدثانِ
أغضى كمستمعِ الهوانِ ، تغيّبتْ
أنصارُهُ وخلا من الأعوانِ

وكان هذا البناء المسكين همةً من همم الملك النبيل رحمه الله . ولقد سمعت أنه قد أحاطه بما يزيد على عشرة أفدنة ليقوم فيها ، وفي متنزهاتها ، وليؤدي أهله إلى صحراء مصر المجهولة حقّها من الدرس والكشف والاستنباط

هذا ، وقد ضرعَ « إسماعيل » إلى خليفة « فؤاد » في ملكه وعلمه وعزمه وبصيرته ، إلى « الفاروق » صاحب مصر الأعلى وحاميها وهاديها إلى الخير ، أن يُتمّ ما بدأ الملك الأول من البناء ، وأن يعيد لملكه الزاهر تاريخ العرب والعربية في عصر المأمون الذي أنشأ « بيت الحكمة » ، وجعله مستقر النقلة من العلماء الذين استوعبوا نقل حكمة « يونان » إلى اللسان العربي ؛ فأسسوا للعلم ملكاً لم يطاوله في العصور إلا عظمة المأمون … قال :

«ومعهد الصحراء — يا مولاي — عظيم متسع الأرجاء اتساع العقل الخالد الذي فكر في إنشائه ، فهل نطمع في أن يضم إليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم أوربا إلى اللغة العربية ؟ وفي مصر — يا مولاي — علماء أقعدهم النسيان عن العمل ومنعهم الخجل عن السؤال ، وعزّ عليهم أن يهينوا العلمَ باستجداء العطف. أنطمعُ — يا مولاي — أن تفيضَ عليهم من فضلك الواسع ما يسدُّ حاجتهم من حطام الدنيا ، ليكونوا نواةً لبيت الحكمة في عهدك ، فيتركوا للأجيال القادمة آثاراً لا يبزها من حيث الأثر في العالم العربي إلاّ عظمتك ، ولا يفوقها في الجلالة إلاّ جلالتك ؟ »

وكل أديب وعالم ومفكر في العالم العربي يضم صوته إلى صوت « إسماعيل » في هذه الضراعة النبيلة إلى « وارث مُلك مصر ، ومجد العرب » ، ويستيقن في قلبه أن « الفاروق » سيحمي العلم والأدب بحماية ملكية ترفع عنه الظلم والاستعباد ، وتحرر العلماء والأدباء من غطرسة الأدعياء المتشدقين بقليل العلم ومنقوص الأدب ، مما أطاقوه وحملوه بفضل الرحلة إلى أوربا بضع سنين ، تزودوا فيها بالمعاشرة والمخالطة — لا بالدرس والمثابرة — بعض ما جهله أصحاب الفضل والعلم والأدب من قومهم لقعودهم بالضرورة والعجز عن مثل الذي ساروا إليه ، وهم بالعلم والأدب أقوم ، وعليه أحرص ، وطبائعهم إليه أشد انبعاثاً

الشباب والسياسة

في يوم الخميس السالف (٤ يناير سنة ١٩٤٠) ألقى بهي الدين بركات باشا محاضرة عظيمة القدر درس فيها معنى « السياسة » وحق « الشباب » في المساهمة في أصولها وفروعها ، ودافع عن حرية الشاب في أن يهتم « بالعمل العام الذي يتصل في وقت من الأوقات بتسيير دفة الحكم في البلاد » . وهذا هو تعريف السياسة عنده ؛ وبذلك يخرج منها النزاع الحزبي الذي شهدته السياسة المصرية خاصة ، على وجه من التنابذ والتعادي والتسفيه والاعتداء على حرية الفرد وحرية الجماعة . فإذا أخرج هذا الضرب من معنى السياسة أوجب العقل أن يكون لكل أحد الحق في أن يشارك أصحاب الرأي في آرائهم ، بل إن الشعور بالحرية

الفطرية توجب عليه أن يشارك بالرأى وأن يُضحّىَ فى سبيل المبدأ الوطنى العام الذى لا تقوم الدولة إلا بقيام معانيه فى أعمال الأفراد والجماعات، وقد ناقش المحاضر جماعة من الأساتذة ولكنهم فى مناقشتهم كانوا لا يزالون متأثرين بالمعنى (المصرىّ القديم) للسياسة، وغفلوا عن الغرض الذى رمت إليه محاضرة المحاضر فى الفصل بين ما كان وما يجب أن يكون عليه معنى السياسة؛ وكيف يشارك الشباب فيها بالرأى والعمل. والسياسة — كما قال عزام بك فى موقفه — لا يمكن أن تكون بحثاً فلسفيا مجرداً، لأن الإيمان بعقيدة ما يقتضى التضحية فى سبيل الدفاع عنها، فإذا كانت السياسة عملاً قوميا يراد به المصلحة العامة ومجد الوطن، فهى أمر يستحق كل تضحية. وأما إذا صارت السياسة إلى المعنى الذى شهدناه فى مصر من الخلاف الحزبى على مطامع الحكم فهى أمر لا يستحق أتفه التضحية

ونحن نعتقد أن الإنسان الحر لا يعرف معنى لهذا السؤال القديم: « هل ينبغى أن يشتغل الشاب بالسياسة أو لا ينبغى؟ » فهو سؤال عليه سيماء الذل والعبودية! إن كل أحد فى مصر وغيرها من بلاد العالم — شاباً أو شيخاً غنياً أو فقيراً — عليه دين للأرض التى تغذوه وتموله وتؤويه وتمده وتحفظ له نسله جيلاً بعد جيل، وأداء هذا الدين لا يكون إلا عملاً فى حفظها وحياطتها والمدافعة عنها بالسلاح والعلم والعمل والفكر والنفس، فإذا أخل أحد بشىء من ذلك خان أمانة هذا الدين وأسقط مروءته

وكيف يمكن أن يمتنع الشاب أو الطالب عن الاشتغال بالسياسة؟ أيمتنع عن قراءة الصحف والكتب لئلا يعرض له الفكر فى ذلك والتمييز بين صوابه وخطأه والعمل على بيان مواضع الخطأ ومعاونة الصواب على الاستمرار؟ أم يقرأ أخبار الأمم وأحداثها فإذا أقبل على أمر بلاده طوى الصحيفة واستغفر؟ أم يقرأ ويقرأ ولا يكون إلا كالخزانة، يُلقى فيها ما يلقى ليحفظ ويصان من لصوص الفكر التى يطلقها عقله فى آثارها؟ أم يقرأ ويفكر، ثم يحبس آراءه بين جدران الجمجمة إلى أن يذهب بها الإهمال؟ وكذلك تضعف النفس وتصدأ وتتآكل، لأن الإيمان والعمل بأمره هما جلاء النفس وصقلها لتبقى أبداً مشرقة.

إن الشاب — ولابد — مشتغل بالفكر فى السياسة، ونصرة مذاهب الحق فيها — كما هو — مشتغل بالعلم والأدب والفن؛ ولكن الإشكال كله فى انفساخ القوة الخلقية التى يجب أن يقوم عليها العلم والأدب والفن والسياسة، وكل عمل؛ فتربية الخلق أوّل، ثم ارموا بالشباب حيث شئتم: فإنهم عصام الشعب، وهم ذادة الوطن، وهم أصحاب المستقبل

المرأة والرجل

لشد ما اجترأت المرأة فى هذا العصر!! وإذا أخذت المرأة أسلحتها — من الزينة والتطرية والجمال والفتنة، وجيّشت غرائزها — من الحذر والحيلة والضعف والإغراء، لم يبق للرجل إلا أن يستقتل أو يفر... وقد أقامت « وزارة الشؤون الاجتماعية » مناظرة بين الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » والسيدة « زاهية مرزوق » وكان غرضها هو « كيف ننهض بالأسرة؟ ». والظاهر أن السيدة الكريمة قد اعتقدت فى قلبها معنى « حرية المرأة » بالإصرار والتعصب فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئاً فشيئاً حتى ليخيل لسامعها أنه مخلوق وحشى منطلق من كل قيود النيل، فهو عندها أنانى لا يؤثر على نفسه، وهو معنى متجسم للفوضى فى بيت الأبوة والأمومة، وهو جاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحس بآلامها، وهو فاجر متوقح يستجر الأخطاء ويجتنيها ثم يرمى المرأة بها وينسل منها

وأنا لا أريد الآن أن أدافع عن الرجل، ولكنى أريد أن أسأل السيدة الكريمة ومن يذهبُ مذهبها من النساء: إذا كانت هذه صفة الرجل فى أنفسكن، وإذا تحدثتن بمثله فبلغ الاسماع فى بيوت المقائل، فوقع فى آذان الأم والزوجة، والفتاة الجاهلة الطياشة، فاعتقدته ومالت إليه أهواؤهن، فبأى عين تنظر المرأة إلى زوجها والفتاة إلى خاطبها؟ وأىُّ معاملة يلقاها الرجل بعدُ على أيديهن وبألسنتهن؟

كلا يا سيدتى، إن المرأة هى تجنى أكثر الذنب فيما نعلم، ثم تنفصل، وهى كل الأنانية إلا أن يتصل أمرها ذلك بمصدر الأمومة فى غرائزها، فهى عندئذ مثال الإيثار والتضحية، ... وهى صاحبة الفضائل كلها إذا أثيرت أمومتها وإحساسها بالمحافظة على النوع الإنسانى؛ وأما بغير ذلك، فهى المرأة بضعفها وأنوثتها وحاجتها إلى عون الرجل وتضحيته ورحمته. وليس للمرأة عمل إلا أن تعمل دائماً على أن تجعل الرجل فى عينها تمام إنسانيتها، وبذلك تستصلح منه ما عسى أن يكون فاسداً، وتتم ما وقع إليها ناقصاً، ويبنى البيت — بيتهما — على أساس من القوة الداعية للبقاء، فمن الرجل الرجمة والإخلاص، ومن المرأة الاحترام والعفاف، ومنهما النسل الجميل المحفوف بالفضيلة من جميع نواحيه.

أبو العباس السفاح

لم تتسع كلمة هذا الأسبوع لتحقيق لقب السفاح أبى العباس عبد الله بن محمد أمير المؤمنين، فأرجأنا ذلك إلى العدد القادم.

محمود محمد شاكر